الحكمة في شعر الإمام الشافعي
دراسة فنية

د. بسام علي أبو بشير

أستاذ الأدب والنقد المساعد – قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الأقصى – غزة

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الموسوم بـ الحكمة في شعر الإمام الشافعي دراسة فنية، بالدراسة والتحليل مفهوم الحكمة ومعناها، وتطورها، وأنواعها قبل الإمام الشافعي.

وقد جاء البحث في محورين هما: –

المحور الأول: مفهوم الحكمة قبل الإمام الشافعي.

المحور الثاني: الحكمة في شعر الإمام الشافعي فنياً.

وسبق المحورين المقدمة، وتلاهما الخاتمة، وفيها أبرز نتائج البحث، وأخيراً قائمة بمصادر البحث و مراجعه.

Abstract

The present entitled research of the wisdom of Shafie Imam poetry، technical analysis study of the notion and meaning of the wisdom development types before the shafie imam.

The research covers two points: the first one is the concept of wisdom before Shafie Imam،while the second is the wisdom of Shafie Imam technical poetry.

The introduction precedes these two points followed by the conclusion which includes the famous research results. Finally، the appendix list

المقدمة

يُعدُّ الإمام الشافعي أحد أبرز علماء أهل السُنَّة، ذاع صيته في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة فقيهاً، خلال عصر من أزهى عصور الأدب ونعني؛ بذلك العصر العباسي.

ويغفل الكثير من الناس أن الإمام الشافعي كان شاعراً، له نتاج شعري متميز، إلى جانب كونه صاحب مذهب فقهي، ومن علماء الدين، واللغة، والأدب.

وفي هذا البحث الموسوم بـ"الحكمة في شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية"نسلط الضوء على حياته، وسيرته العبقة، إضافة لدراسة الحكمة في شعره من خلال ديوانه الذي جمعه وحققه وشرحه الدكتور إميل بديع يعقوب.

وقد جاء البحث وفق المنهج الوصفي التحليلي في دراسة هذه الشخصية، ونتاجها الشعري الذي يحمل جوانب إنسانية، ومآثر، ونصائح تصلح في كل زمان ؛ فالإمام الشافعي بما تركه من مصنفات دينية، وعلمية، وأدبية، متعددة تضعه في مصاف العلماء الكبار الذين يجب أن نعتني بدراستهم،

ونشر نتاجهم ؛ فهم قدوة لنا عبر الأجيال، لاسيما شعره الذي يجذب القارئ لما فيه من إبداعات، تحث الإنسان على طاعة الله، بأسلوب سهل وبسيط، وهذا يعكس شخصيته المتواضعة، وفكره السلس، وحياته البسيطة.

ويمكن القول: إنَّ هذا العالم الشاعر منحه الله عدة مزايا تتمثل في ثقافته الموسوعية، وذكائه الفطري المتميز، وعلمه الواسع، وحبه للخير والنصيحة، وظهر ذلك في كتاباته الدينية كما في"الرسالة"و"الأم"وفي ديوانه الشعري المليء بالحكمة الدينية الخالدة.

١ – المبحث الأول: مفهوم الحكمة، وتطورها قبل الإمام الشافعي

وردت لفظة الحكمة في المعاجم اللغوية بمعنى معرفة الأشياء بدقة، ولا يوجد مفهوم محدد"للحكمة"، وواضح، فتارة يقال رجل حكيم، وتارة يقال"الحكيم"، وهو الإنسان الذي يعرف أفضل الأمور، وأحسنها، وأدقها.

ففي لسان العرب جاءت لفظة الحكمة، وجذرها حكم بمعنى الحكيم وهو"الذي يحكم الأشياء ويتقنها، وقيل الحكيم ذو الحكمة[١].

وفي معجم"المنجد في اللغة والأعلام"الحكمة"من حكم حكمة صار حكيماً، أحكمته التجارب.

والحكمة جمع حِكَمْ، الكلام الموافق للحق والفلسفة وأحكم الشيء أتقنه[٢].

أما في المعجم الفلسفي لجميل صليبا فالحكمة هي العلم والتفقه[٣].

ومن خلال الحكمة لغة في القواميس والمعاجم اللغوية، والفلسفية ننتقل إلى معنى الحكمة اصطلاحاً: فهي القول الموجز الذي ينم عن تجربة إنسانية، وللحكمة أنواع **منها**:

الحكمة الدينية، والحكمة الفلسفية، والحكمة التراثية، والإنسانية وغير ذلك.

وبتتبع مفهوم الحكمة عند الأمم، والأقوام نجد من معانيها العلم عند اليونانيينالقدماء[٤] (الإغريق)، أما الفيلسوف الفرنسي ديكارت فقصد بالحكمة (المعرفة الكاملة

بجمع ما يمكن أن يعرف لتدبير الحياة، وحفظ الصحة واختراع الصناعات[٥]

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبيري وآخرون،دار المعارف، القاهرة ج٢ ص٩٥٢ – ٩٥٣.

(٢) المنجد في اللغة والأعلام الطبعة السابعة والثلاثين دار المشرق لبنان بيروت ١٩٩٨ ص٣٧.

(٣) المعجم الفلسفي د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٩٨٢ ص٤٩١.

(٤) المعجم الفلسفي، جميل صليبا ص٤٩١.

(٥) موسوعة لالاند، أندريه لالاند، منشورات عويدات، بيروت طبعة ٢/٢٠٠١م ص١٢٣٥.

أما الحكمة عند المسلمين ؛ فقد جاءت بعدة مفاهيم، ومواضع في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ؛ فالحكمة في القرآن الكريم بمعنى العلم، والعدل، والحكم والعمل، وغير ذلك من الأمور التي تدل على القول الموجز البليغ، والتجربة الإنسانية وما شابه ذلك.

ففي القرآن الكريم جاءت لفظة الحكمة في عدة مواضع منها قوله تعالى"لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ"سورة لقمان، الآية ١٢.

وفي قوله تعالى"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ"سورة البقرة، الآية٢٦٩.

وقوله تعالى أيضاً"وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً"سورة يوسف، الآية ٢٢.

أما في الحديث الشريف فقد جاءت الحكمة في أكثر من موضع منها: –

قوله صلى الله عليه وسلم (إن من الشعر حكمة)[١].

وقوله أيضاً"إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد حتى تضعه موضع الملوك[٢].

وعنها يقول العالم أبو حيان التوحيدي"الحكمة ضالة المؤمن أين ما وجد ها أخذها، وعند من رآها طلبها، والحكمة حق والحق لا ينسب إلى شيء بل كل شيء ينسب إليه"[٣].

أما العالم والشاعر ابن الشجري فيذكر من معاني الحكمة فيقول:"اليقين على أربع شُعب، على تبصره الفطنة، وتأويل الحكمة، وموعظة العبرة، وسُنَّة الأولين فمن تبصر الفطنة، تأول الحكمة، ومن أوّل الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة كان من الأولين[٤].

ويمكن القول: إنَّ لفظة الحكمة تشمل مجموعة من المعاني، والتعابير، وتختلف معانيها وتتعدد بحسب استخداماتها، ومواضعها المتنوعة.

فعلى سبيل المثال من أسماء الله الحسنى الحكيم، وهو صيغة تعظيم لدى الحكمة، فيكون معنى الحكمة هنا العظيم في حكمته، وكأن إطلاق صفة الحكيم على الخالق إنما ليحكم المخلوقات.

وفي علم النحو تأتي الحكمة بمعنى وضع الكلمة في مكانها وإعرابها[٥].

كما تطلق لفظة الحكمة على قطعة الحديد التي توضع في فم الحصان لتلجمه حتى يتحكم فيه راكبه فقطعة الحديد التي توضع في فمه تعلمه كيف يكون محكوماً من صاحبه[١].

---

(١) صحيح البخاري ح٤، ص٧٣.

(٢) المرجع نفسه ح٤ ص٨٥.

(٣) البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، ص٥٣.

(٤) الأمالي الشجرية، ابن الشجري ص٥٠.

(٥) شبكة المعلومات، تعريف الحكمة الموقع الالكتروني (Google).

والحكمة في الشعر: أن تزن الكلمات على التفاعيل[٢].

والحكمة في الفقه: أن نستنبط الحكم الصحيح والحكمة في الطب: أن نعرف تشخيص المرض والدواء المناسب له.

والحكمة في الهندسة: أن نصمم المبنى كما ينبغي واستخداماتها، وكذلك أنماطها[٣]، وأشكالها وخلاصة القول: إنَّ الحكمة كلمة تجمع بين العلم والعمل، والنظرية والتطبيق، ولها شكل ومضمون، وتتسم بالشمولية والوضوح، وعرفها العرب وكذلك المسلمون، والعديد من الأمم، والأقوام قديماً، وحديثاً.

وفي هذا البحث، وتحديداً في هذا المبحث تعرفنا على مفهوم الحكمة ومعناها قبل الإمام الشافعي ؛ فمن هو الإمام الشافعي الذي يذكر الحكمة في شعره.

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف... ويجتمع في نسبه مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم .... ويروى أن جده شافعاً لقي رسول الله – صلى الله عليه وسلم[٤] ولذلك لقب بالشافعي.

ولد الإمام الشافعي[٥] في مدينة غزة سنة خمسين ومائة، قيل ولد في السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة.

---

(١) الفوائد، ابن القيم الجوزية، ص٤٣

(٢) شبكة المعلومات، تعريف الحكمة (موقع Google).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ديوان الإمام الشافعي، جمع وتحقيق الدكتور إميل بديع يعقوب ص٩-١٠

(٥) ديوان الإمام الشافعي، ص١١.

* وردت سيرة الإمام الشافعي وحياته في العديد من المصادر والمراجع منها: –

– آثار البلاد وأخبار العباد، للقزويني ص٦٩ وما بعدها.

– الأعلام للزركلي ٦/٢٦-٢٧.

– البداية والنهاية، لابن كثير ١٠/٢٥١-٢٥٤.

– تاريخ الإسلام للذهبي ٢١/٣٠٤-٣٤٢.

– تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/٥٦-٧٣.

– تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢/١٤٣

– الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي ٢/١٧١-١٨١.

– وفيات الأعيان، لابن خلكان ٤/١٦٣-١٦٩.

أما مكان ولادته؛ فقد اختلف فيه، فقيل ولد بغزة، وقيل ولد بعسقلان، وقيل باليمن، والراجح أنه ولد بغزة، وإلى هذا يذهب ابن خلكان(١).

يؤكد ذلك ما أورده ياقوت الحموي فيذكر (أنه بها ولد الإمام الشافعي، ثم يروى له بيتين من الشعر قالهما في تذكر (غزة) من البحر الطويل: –

وإني لمشتاق إلى أَرْضِ غَزَّةٍ.. وَإنْ خَانني بعدِ الَتَفرَّقِ كتماني.

سقى الله أرضاً لو ظفرت بُتُرْبِها: : كَحلْتُ به من شِدةِ الشوق أجفاني(٢).

وقبل الحديث عن الجوانب المهمة في حياته، وطلبه للعلم وحفظه للقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر... حتى قيل: إنَّه حفظ القرآن، وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطّأ وهو ابن عشر سنين(٣) يجدر بنا ربط حياته ببعدين: هما البعد الاجتماعي، والبعد الثقافي، وأثر هذين البعدين على تجربته الشعرية بشكل خاص، وعلى حياته بشكل عام(٤).

فالبعد الاجتماعي، هو مجموع المؤثرات البيئية، وتفاعلها،وآثارها.

وآثارها(٥)، فالشاعر يتجاوب مع البيئة الاجتماعية ويظهر ذلك في شعره، فيتأثر بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه.

وفي حياة الإمام الشافعي مظاهر اجتماعية منها كما سبق نسبه الممتد المتصل مع رسولنا الكريم . صلى الله عليه وسلم . وهذا الشرف في النسب لم يتوفر لغيره من الشعراء أو الأئمة (أبو حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل) كذلك انتماء الإمام الشافعي لقبيلة قريش، وأنه من بن عبد المطلب، ويذكر ذلك صراحة في كتابه الرسالة(٦).

(١) وفيات الأعيان، وأنباء الزمان، لابن خلكان، ح٤،ص ١٦٥.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ص١٢٢.

(٣) ديوان الإمام الشافعي (مرجع سابق) ص١٢،١١.

(٤) الصورة في شعر الإمام الشافعي، د/سعيد الفيومي بحث نشر في مجلة جامعة القدس المفتوحة العدد السابع ٢٠٠٦م، ص٢٥٣.

(٥) الواقع الاجتماعي في شعر حافظ وشوقي، د/محمد عويس محمد، بحث نشر في مجلة فصول، القاهرة مجلد ٣ جزء ٢، ١٩٨٣م ص٢٤٦.

(٦) الصورة في شعر الإمام الشافعي، ص٢٥٢.

كذلك من الأبعاد الاجتماعية في حياته وفاة والده بعد مولده بأشهر قليلة، وهو طفل صغير على أرجح الروايات، وبعد عامين على ولادته حملته أمه، ورحلت به من غزة إلى مكة[١]، فعرف حياة اليتم والترحال ولقي من الحرمان، والفقر، والكفاف، ما لقي، وأثر ذلك في تكوين شخصيته.

وهكذا تشكلت شخصيته الاجتماعية، والعلمية عندما كبر، وكان يتنقل ما بين مكة والمدينة.

حيث التقى بالمدينة المنورة[٢] بالإمام مالك، وصحبه فترة طويلة، وبعد وفاة الإمام مالك يرحل إلى اليمن وله من العمر تسع وعشرون سنة ويعمل عملاً إدارياً ليتكسب منه[٣]كما يؤكد ذلك الإمام النووي فيقول:"وولي باليمن – أي الشافعي – واشتهر من حسن سيرته، وحمل الناس على السُنَّة، والطرائف الجميلة، أشياء كثيرة معروفة[٤].

ثم يسافر من اليمن إلى العراق، ومن عاصمة العراق بغداد يعود مرة أخرى إلى مكة.

(حيث اتخذ هناك حلقة للتدريس بفناء زمزم[٥])، ويمكن القول: إنَّ البعد الاجتماعي في حياة الشافعي جعله يميل إلى التسامح الديني، وإلى حُب العقيدة، والسُنَّة، ولعل تنقله وترحاله بين المدن، والبلدان ما بين مكة والمدينة، واليمن، والعراق، ثم مصر، قد جعله ينشأ كإنسان، وعالم، وفقيه، وشاعر يحب مخالطة الناس على اختلاف مشاعرهم، ويشعر بهمومهم، ومشاكلهم، ليكتسب خبرة، وتجارب إنسانية تظهر في نتاجه العلمي، والأدبي فيما بعد.

أما البعد الثقافي في حياة الشافعي فيبدأ من موهبته[٦]التي وهبها الله إياها، ثم رحلاته، وثقافته، وعلمه الذي تعلمه، والتجارب التي خبرها، واكتسبها كون لديه رؤية فكرية، وتجربه فنية، وتجسد ذلك في تجربته الشعرية التي سنأتي عليها في المبحث الثاني، ولعل أبرز جوانب البعد الثقافي يكمن في ثقافته الدينية، وتشجيع والدته له منذ الصغر على حفظ القرآن الكريم، ومجالسة العلماء في المسجد الحرام بمكة، وعن ذلك يقول الشافعي (كنت يتيماً في حجر أمي، فدفعتني إلى الكُتّاب، ولم يكن

(١) ديوان الإمام الشافعي (مرجع سابق) ص١١.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢.
(٣) الصورة في شعر الإمام الشافعي، ص٢٥٣.
(٤) الحافظ البيهقي، مناقب الشافعي ص١٠٢–ص١٠٣.
(٥) الصورة في شعر الإمام الشافعي، ص٢٥٣.
(٦) المرجع نفسه، ص٢٥٣.

عندها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام... فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث والمسألة، فأحفظها،... وسوى ذلك وساوس الشياطين)[١] وفي ذلك يقول شعراً جميلاً:

كل العلوم سوى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ إلا الحَديثَ وعِلْمَ الفِقه في الدِّين

العلم ما كان فيه قال حدثَنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين[٢]

ومما يروى عنه أنه امتلك ذاكرة خصبة وقوية، يحفظ فيها الكثير من العلوم الدينية، واللغوية، والعلمية يقول أبو بكر البيهقي (ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي.)[٣]

وخلاصة القول في البعد الثقافي عند الإمام الشافعي: إنَّه جمع بين الثقافة الدينية، والفكرية، والخبرة، والتجربة العميقة من خلال تنقله، وحفظه للقرآن الكريم، والحديث الشريف، مما منحه أفقاً واسعاً كان له عظيم الأثر على شعره وأدبه، وعلمه.

وقيل الحديث عن شعره تختم هذا المبحث بذكر وفاته حيث تذكر أغلب الروايات: إنَّه توفي في مصر حيث (وافته المنية يوم الجمعة الواقع في التاسع والعشرين من رجب عام أربعة ومائتين للهجرة،... تاركاً ولدين هما أبو عثمان محمد، وأبو الحسن، وبنتين هما زينب وفاطمة، وعشرات المصنفات الفقهية وغيرها.)[٤]

وبذلك تنتهي حياة عالم جليل، وعلم، وإمام قل نظيره، إلى جانب كونه شاعراً.

المبحث الثاني: الحكمة في شعر الإمام الشافعي فنياً

بعد التعرف على مفهوم الحكمة، وأنواعها في المبحث الأول، وكذلك دراسة حياة الإمام الشافعي من خلال البعدين: الاجتماعي، والثقافي، نتعرف في هذا المبحث على الحكمة في شعره فنياً، ونعني بالنواحي الفنية ؛ اللغة الشعرية، والصورة الشعرية، وكذلك الموسيقى الشعرية، وتأثير ذلك على جماليات الحكمة في شعره.

بالرجوع إلى ديوان الإمام الشافعي الذي جمعه وحققه الدكتور إميل بديع يعقوب[٥] يلاحظ بداية أن المحقق قسم الديوان إلى عدة أقسام منها: –

(١) مناقب الشافعي(مرجع سابق) البيهقي ص٩٢.

(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص١٤٥.

(٣) مناقب الإمام الشافعي، الحافظ البيهقي ص٤٨٨.

(٤) ديوان الإمام الشافعي ص١٢.

(٥) ديوان الإمام الشافعي جمعه وحققه وشرحه، الدكتور أميل بديع يعقوب، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي بيروت لبنان١٩٩٦م صفحة الغلاف.

- القسم الأول: وفيه تحدث عن سيرة الإمام الشافعي، وترجم له بدقة متناهية.
- أما القسم الثاني: وهو عبارة عن مجُمل الديوان وفيه كل الأبيات الشعرية[١] التي نظمها الإمام الشافعي من قافيه الهمزة وصولاً إلى قافية الياء.
- والذي يعنينا في هذا القسم كيف جاءت الحكمة وجمالياتها في أبياته الشعرية؛ ويمكن تتبع ذلك فنياً على النحو الآتي: -

يقول الشاعر الشافعي:

دع الأيام تفعل ما تشاءُ وطب نفساً إذا حَكَم القضاءُ
ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاءُ
وكن رجُلاً على الأهوال جَلْداً وشيمتك السماحة والوفاءُ
إذا مِا كنتَ ذاَ قلَب قَنُوعٍ فأنت ومالك الدنيا سَوَاءُ
دَعِ الأيامَ تَغْدِرُ كُلَّ حينٍ فَمَا يغُني عَنِ المْوتِ الدَّواءُ[٢]

يلاحظ في هذا النص الشعري فنياً لغته الشعرية السهلة البسيطة، والبُعد عن التعقيد اللغوي للألفاظ، والأسلوب الرقيق في التعابير ،والمعاني المليئة بالحكمة.

أما الصورة الشعرية؛ فهي تجمع بين التشبيه والاستعارة بيانياً والصورة الحسية اللمسية،والذوقية، والشمية، والسمعية، والبصرية، وكذلك الصورة العقلية المعنوية مثل السماحة والوفاء، والأهوال،والجَلَد في البيت الأول.

وتبرز الموسيقى الشعرية المؤثرة في هذه الأبيات من خلال التزام الشاعر بقافيه الهمزة، والبحر الوافر وتكرار عبارة (دع الأيام تفعل) في مطلع البيت الأول، ثم مطلع البيت الأخير (دَعِ الأيام تغدر) كجرس موسيقى داخلي للألفاظ وتكرارها، مع الموسيقى الخارجية في التزام الوزن والقافية.

أما مضمون الأبيات فلا يخلو من الحكمة الدينية حيث الإيمان بقضاء الله وقدره للإنسان المسلم. المستمد من الآيات القرآنية وأحاديث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–.

ومن أبيات الحكمة في الحث على عدم الاستهزاء بالدعاء قوله: -

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما تدري بما صنع الدُّعاءُ

(١) لم يتم جمع أشعار الإمام الشافعي في ديوان شعري إلا بعد وفاته من خلال تلامذته ومؤيديه، وعدد من المهتمين بالأدب والشعر.

(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص٤٠،٤١.

سهام الليل لا تخطي ولكن لها أمد وللأمد انقضَاءُ
فيمسكها إذا ما شاء رَبّي وَيُرسِلها إذا نَفَذ القَضاءُ[1]

فالأبيات من البحر الوافر، قافيتها الهمزة المضمومة، بأسلوب استفهامي (أتهزأ بالدعاء، وما تدري) مباشر يجيب عليه في نهاية البيت الثالث (يرسلها إذا نفذ القضاء) بمعنى حل حكم الله ولا تخرج الأبيات في مضمونها عن الحكمة الدينية التي تدعو الإنسان إلى عدم الاستهتار بالدعاء، فهو سلاح المؤمن، يرجو به ربه أن يساعده ويتقبله منه.

ومن ألوان الحكمة الدينية قول الإمام الشافعي أبيات يدعو فيها إلى تجنب الكذب.

– ألذ وأحلى من مقال وخلفه يقُال إذا ما قمّتْ: أنت كذوبُ
– وهل أحد يصغي إلى عُذر كاذب إذا قال لم تأب المقال قلوبُ[2]

فالبيتان من أرجوزة (أربعة أبيات) من البحر الطويل قافيتها الباء المضمومة، نلمح من الأبيات تجربة إنسانية للشاعر حيث يطلب من كل إنسان البعُد عن رذيلة (الكُذب) في العلاقات بين الناس ؛ فقد اختار الشاعر ألفاظاً فيها سلاسة، وعذوبة، ورقة (ألذ وأحلى) (أنت كذوب) في البيت الأول، وتتجسد الحكمة في تجربته من خلال قوله (عَذر كاذب)، والجرس الموسيقى بين الألفاظ (كذوب، قلوب) (كذب، كذوب).

ومن جميل نظمه للحكمة التراثية، والتي فيها دعوة إلى طلب العلم قوله: –

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٌ، وَحِرصٌ، واجتهاد، وبُلْغَةٌ وَصُحْبَة أستاذٍ، وطول زمان[3]

ففي البيتين نصيحة نصح بها الإمام الشافعي كل من يرغب في طلب العلم، وهما من البحر الطويل بقافية النون المكسورة، وألفاظ سهلة تدل على براعة الشاعر، وقدرته على تحفيز الآخرين على حُب العلم وطلبه، وبذل الجهد، وصحبة الأستاذ في سبيل ذلك مهما طال الزمان.

ومن جميل قوله في (العلم نور) أيضاً بيتين فيهما حكمة دينية وتراثية.

شكوت إلى وكيع سُوءَ حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهُدى لعَاصي[1]

(١) ديوان الإمام الشافعي، (مرجع سابق) ص٤١.
(٢) المرجع نفسه ص٤٦.
(٣) ديوان الإمام الشافعي، ص١٦٤.

فالشاعر نظم البيتين من البحر الوافر بقافيه الصاد وبأسلوب مباشر، وبتعابير متجانسة وألفاظ سلسة، ويبدو في البيتين استخدام الشاعر للفظة العلم وربطها بالنور، ثم أضاف (ونور الله) لا يناله العصاة وهنا صفة العلم ينالها العلماء.

ويربط الإمام الشافعي الشاعر بين الحِكمْةِ، والعلم، والابتلاء بالفقر في أبيات من البحر السريع بقافية اللام المكسورة فيقول:

لا يدرك الحكمة من عُمْرهُ يكدح في مصلحة الأهلِ
ولا ينال العلم إلا فتى خال من الأفكارِ والشُّغْلِ
لو أن لقمان الحكيم الذي سارت به الركبان بالفضلِ
بُلِي بِفقرٍ وَعِيالَ لما فَرقَّ بين التينِ والبَقلِ[٢]

ففي هذا النص الشعري لا نريد (التكرار الرتيب، بل إنها أول ما تنفيه في ذلك التشكل المختلف والمتنوع الذي تسعى فيه.... إنها تعني التجديد والابتكار)[٣] فالشاعر يربط أيضاً بين الحكمة والعلم مستشهداً من القرآن الكريم بشخصية (لقمان الحكيم) ويستدعي الفقر كَمُفرِق للحكمة والعلم.

ومن الأبيات التي فيها حكمة، وأصبحت مضرب مثل بين الناس في رمي الناس لعيوبهم على الزمان بدلاً من تَحمِّلِها قول الشاعر الإمام الشافعي في ذلك: –

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
نهجو ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا
فدنيانا التصنع والترائي ونحن به نخادع من يرانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عيانا
لبسنا للخداع مسوك ضأن فويل للمغير إذا أتانا[٤]

فالأبيات من البحر الوافر بقافية النون المفتوحة والألف زيادة، وبلغة شعرية

(١) المرجع نفسه، ص٢١.
(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ١٢٢،١٢١.
(٣) في النص الشعري العربي مقاربات منهجية، الدكتور سامي سويدان الطبعة الثانية دار الآداب – بيروت ١٩٩٩م ص١٥.
(٤) ديوان الإمام الشافعي، ص١٣٧.

عذبة تجعل قائلها شاعر حكمة، وصاحب تجربة عميقة، إنسان امتلك الخبرة، والقدرة على معرفة الإنسان من الزمان، وهذا في حد ذاته يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الحكمة هي الغرض الأبرز في جُل أشعار الإمام الشافعي، وتشكل مفتاحاً حقيقياً يظهر في ثنايا ديوانه الشعري منذ بدايته إلى نهايته.

ولعل الحكمة الدينية المستمدة من القرآن الكريم، ومن أحاديث رسولنا – صلى الله عليه وسلم– هي العنوان الأشمل لأغلب ما أبدعه شعراً ونثراً

ونختم من الشواهد الشعرية له بقافية الياء أبياتاً توضح منهجه في الحياة، وحبه لخالقه، وللإسلام حيث يقول: –

كساني رَبّي إذ عريت عَمَامةً جديداً أو كان الله يَخْتارُها ليا

وقيدني رَبّي بقيدٍ مُد اخلٍ فأعيت يميني حلَّةُ وشماليا[1]

البيتان من البحر الطويل وكما أسلفت من قافية الياء المفتوحة فيهما جزالة ورصانة في التعبير عن حبُه لربه الذي كساه بعد عُري، وتضاد جميل بين (يميني وشمالي، كساني، عريت) الذي يجعل الصورة الشعرية بديعية إلى جانب كونها بيانية (تشبيه واستعارة).

وعن تمسكه بالإسلام بشيء من الحكمة والإبداع يقول: –

لا تأس في الدنيا على فائتٍ وعندك الإسلامُ والعِافَيةْ

إن فات أمر كنت تسعى له ففيهما من فائتٍ كافِيه[2]

فالبيتان من البحر السريع والياء المفتوحة قافيتهما والهاء ساكنة زيادة، ويمكن القول: إنَّ المتصفح لديوان الإمام الشافعي يلاحظ بوضوح نقطتين مهمتين هما: –

- النقطة الأولى: تمسك الشاعر بالنواحي الدينية.
- النقطة الثانية: حُبه للعلم، والنصح، والتأكيد على الحقائق والمسلمات

وبين ثنايا النقطتين تبرز الحكمة وتتجلى بوضوح في أغلب ما ذهب إليه الشاعر فإذا دعاكٍ إلى الرضي بقضاء الله، وعدم الاستهزاء بالدعاء، والتحلي بالصبر، وتجنب الكذب، والبعد عن الغرور، والقناعة، والزهد وحب العلم، والإيمان بالله وترك البخل، والاستعداد للموت، وتقبل بلاء الزمان، والجود والكرم، وعدم الطموح، وترك الشر، وكتمان السر، والحض على السفر، والبُعد عن أبواب

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

الملوك[١]، وغير ذلك من القضايا والأمور التي أوردها شعراً في ديوانه وجعله (الحكمة) الغرض الأوحد، والأشهر، حتى أنه عند ما يمدح تجد الحكمة في مدحه فقد مدح الشافعي الإمام أبو حنيفة، كما مدح الإمام أحمد بن مالك، إلى جانب مدحه للرسول –صلى الله عليه وسلم–، و مدح الخلفاء الراشدين وعليه أرى أن الحكمة بشكل عام، والحكمة الدينية بشكل خاص

كونت ظاهرة جمالية في شعره عكست ملامح شخصيته المتواضعة وتجربته الإنسانية، ورجاحة عقله، ونفسيته الطيبة، ورؤيته لكل مظاهر الحياة بمنظار الإنسان المسلم الحكيم الذي امتلك الأدوات الفنية القوية في شعره، وفي علمه الديني (صَّور العلاقة بين الأصدقاء بصورة عميقة ودقيقة ومثل هذا التصوير ليس خاصاً بالشاعر، وزمانه، ومكانه، بل هو يصدق على زمانه وزمان الآخرين)[٢]

بقي الإشارة إلى أن الحكمة لم تقتصر على إبداعات الشافعي الشعرية بل تعدتها إلى كتاباته النثرية وبذلك جمع بين الشعر والنثر في قوله للحكمة، وكما يقول الجاحظ"ويجتمع في الحكمة أربعة أمور لا تجتمع في غيرها من ضروب الكلام إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابة فهذه هي نهاية البلاغة[٣]

وبإحصاء دقيق لمجمل الأبيات الشعرية التي نظمها الشافعي والواردة في ديوانه فأنها بلغت أربعمائة وتسع وسبعين بيتاً في مئة وعشرين قطعة شعرية[٤]

ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ الشاعر الشافعي بشعره كان حكيماً، وعالماً وفقيهاً وعلماً يشار إليه بالبنان في عصره.

فإذا كان الشاعر زهير بن أبي سُلمى يمثل عصر ما قبل الإسلام شعراً في مجال الحكمة الشعرية، فإن الشاعر الشافعي مثل الحكمة الدينية في زمانه دون أن نغفل الشعراء الآخرين الذين ذاع صيتهم في نظم شعر الحكمة، أمثال: أبي تمام، والمتنبي، وقبلهم الشاعر حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وجرير، وغيرهم الكثير.

لذلك يمكن القول: إنَّ الحكمة شكلت ظاهرة شعرية، وعلامة مضيئة مميزة في الشعر العربي عبر عصوره، إلى يومنا هذا

---

(١) ديوان الإمام الشافعي،ص ١٠– ٢٥.

(٢) الصورة في شعر الإمام الشافعي، ص ٢٥٨.

(٣) انظر: البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ص١٧ وما بعدها.

(٤) انظر: ديوان الإمام الشافعي، ص٢٩ وما بعدها.

والشاعر الشافعي كان أحد أبرز الشعراء في عصره، حيث جعل الحكمة سمة مميزة لجُل أشعاره.

فإلى جانب الحكمة الدينية، والتراثية في شعره، تبرز الحكمة الفلسفية كما في قوله:

ومتعب العيس مرتاح إلى بلدِ والموت يطلبه في ذلك البلدِ

وضاحك والمنايا فوق هامته لو كان يعلم غيباً مات من كمدٍ(١)

ففي النص الشعري فلسفة إسلامية هي حقيقة الموت، وعلم الغيب، وضرورة الاستعداد للرحيل.

أما من الناحية الفنية فالبيتان من البحر الطويل، وقافيته الدال المكسورة.

"من يتعمق في الجمال التصويري يستشعر بالصور الناطقة[٢]، الحكمة الفلسفية المستمدة من العقيدة الإسلامية، والتراث العربي.

الخاتمة

بعد دراسة الحكمة في شعر الإمام الشافعي دراسة فنية من خلال ديوانه يُلاحظ أن جُل قصائد الديوان، قصائد من النوع القصير، وموضوعها محدد، وشمل الديوان أيضاً ما يسمى في الشعر بالأراجيز الشعرية (بيتين، أو ثلاثة أبيات، أو أربعة أبيات على الأكثر) وفي كل أرجوزة يتناول حكمة تنم عن تجربة، أو قضية اجتماعية، أو ثقافية، أو دينية عاشها الشاعر، وأغلب الظن أن العصر الذي عاش فيه الشاعر الإمام الشافعي (١٥٠هـ – ٢٠٤هـ) أي العصر العباسي الأول ظهر فيه هذا النوع من القصائد فيما نسميه القصيدة التوقيعية، وإلي جانب ذلك نظم الشاعر قصائد تزيد عن عشرة أبيات وهكذا.

ويمكن القول إن قصائد الإمام الشافعي كانت بمثابة أشعار حكمة ووصايا، ومضرب مثل صاغها في قوالب شعرية، بلغة بسيطة بعيدة عن التعقيد اللغوي، أو المعنوي، مال إلى الجزالة ولاختصار فيما أبدعه فجاء شعره واضحاً يَعلق بالأذهان، ويطرب له كل قارئ ومستمع، ومُحَب للشعر العربي الأصيل.

– وفي الأخير أؤكد على أن الحكمة في شعره شكلت نمطاً متميزاً، وظاهرة عكست قدرته على توظيفها، توظيفاً إبداعياً، ومن خلال تجاربه المتنوعة، وتنقله بين الأقوام والبلدان سواء في شبه

(١) ديوان الإمام الشافعي، ص٦٩.

(٢) جماليات القصيدة في الشعر الفلسطيني المعاصر، يحيى زكريا الآغا، الطبعة الأولى،دار الثقافة الدوحة، دار الحكمة غزة،١٩٩٦م، ص١٢٩.

الجزيرة العربية، أو العراق، وأخيراً مصر التي احتضنته وبها وافته المنية، بقي علمه وشعره خالداً إلى يومنا هذا.

ونختم بالقول إن شعر الإمام الشافعي مليء بالظواهر الفنية والأدبية التي، تفتح آفاقاً للدارسين، والباحثين لدراسة إبداعات هذا الشاعر للوصول إلى مكانته الحقيقية، ومضامين شعره.

وأكاد أجزم بأن شعر الإمام الشافعي شعر ناضج من الناحية الفنية، إلى جانب متانة مضامينه الأدبية والعلمية، وتحديداً قدرته على امتلاك ناصية الإبداع، الكلام السهل البسيط بلغة شعرية معبرة، وصور وأخيلة ترتبط بالواقع، وبأسلوب مميز ينم عن تجربة شعرية عميقة، توضح شخصيته المتواضعة، وقدرته على جعل الحكمة بوصلته في النظم، وبوجه خاص الحكمة الدينية، إلى جانب الحكمة التراثية، والحكمة الفلسفية التي تستمد أصولها من العقيدة الإسلامية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني دار صادر بيروت ١٩٦٠م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.
- الأذكياء، الجوزي، مكتبة الغزالي، مصر (د،ت).
- الأعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.
- الجرح والتعديل، عبد الرحمن الرازي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٥٢م.
- البصائر والدخائر، أبو حيان التوحيدي،دار صادر،بيروت.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٤م
- المعجم الفلسفي، د/ جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢م
- التصوير الشعري، أ. د/ عدنان قاسم، الدار العربية للنشر، القاهرة ٢٠٠٠م.
- المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة السابعة والثلاثين، دار المشرق، بيروت ١٩٩٨م.
- الحيوان، للجاحظ،الطبعة الأولى، دار الجيل، ودار الفكر، بيروت ١٩٨٨م.
- الإمالي الشجرية، ابن الشجري، طبعة حيدر آباد – الهند ١٩٥٢م.
- الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي بيروت (د.ت).
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي، اعتناء شكري فيصل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار فيسبادن، ألمانيا ١٩٨١م.
- تاريخ الإسلام، للذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى بيروت. ١٩٩٠م.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت (د.ت).
- تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٥م.

– جماليات القصيدة في الشعر الفلسطيني المعاصر، تأليف يحيى زكريا الآغا، الطبعة الأولى، دار الثقافة الدوحة، دار الحكمة غزة ١٩٩٦م.

– ديوان الإمام الشافعي، جمع وتحقيق وشرح الدكتور إميل بديع يعقوب، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي،بيروت ١٩٩٦م.

– دراسة فنية في شعر الشافعي، حكمت صالح، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٤م.

– صحيح البخاري، للبخاري، الجزء الرابع، مكتبة الإيمان المنصورة ١٩٩٨م.

– في النص الشعري العربي (مقاربات منهجية)،الدكتور سامي سويدان، الطبعة الثانية، دار الآداب بيروت ١٩٩٩م.

– لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبيري، وآخرون، الجزء الثاني، دار المعارف القاهرة.

– معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(د.ت).

– معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩م.

– مناقب الشافعي، للحافظ البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة ١٩٧١م.

– موسوعة لالاند، أندريه لالاند، منشورات عويدات الطبعة الثانية بيروت ٢٠٠١م.

– مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد الميداني (١–٢) الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ٢٠٠٤م.

– وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق أ. د/ إحسان عباس، دار صادر بيروت (د.ت).

مجلات علمية محكمة

– بحث"الصورة في شعر الإمام الشافعي" د. سعيد الفيومي، مجلة جامعة القدس المفتوحة (مجلة علمية محكمة) العدد السابع – نيسان ٢٠٠٦م.

– بحث الواقع الاجتماعي في شعر حافظ وشوقي، د/محمد عويس محمد،مجلة فصول، مجلد ٣، جزء ٢، القاهرة ١٩٨٣م.

مواقع الكترونية

– شبكة المعلومات الإلكترونية (تعريف الحكمة مفهومها وأنواعها) موقع (Google).